أدباء عالميون

٢ ـ موريس ماترلنك

للأستاذ صلاح الدين المنجد

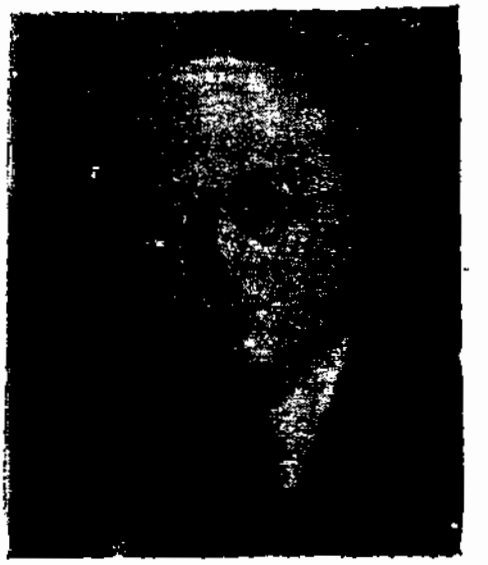

وأخرج ماترلنك ، بعد « الأميرة مالين » درامته المسماة :

« بالدخيل Intruse » ، وهي ذات فصل واحد ، تجرى حوادثها في بهو مظلم ، من قصر قديم . أما أشخاصها فقلال : جد أعمى ، وأب ، وعم ، وثلاث فتيات . كما رأيت أن أشخاص الأميرة « مالين » هما الملك والملكة ... فالملكة تجن ، والملك يموت ... ولكنهما يخفيان وراء شخصيهما أمراً ، ذلك أن الناس كلهم أمام تلك القوة الخفية التي تؤثر فينا متشابهون ، سواء أنسبوا ذلك للمصادفة أو الحظ أو الشقاء أو الموت ... لأن أشد الناس اختلافاً وتبايناً يصبحون متساوين متشابهين أمام العدم ...

إذن فأشخاص الدرامة الثانية قليلون . وهاهم أولاء في غرفة يكاد مصباحها لا يضيء ... يتكلمون وأصواتهم لا تسمع ... يقطعون الليل قلقين مضطربين وفي غرفة مجاورة تنام تلك التي يقلقون عليها ويضطربون ... تلك المرأة المشرفة على الموت . لقد كانت تجود بنفسها ، في حين كان الأب والعم ، والفتيات يطمئن بعضهم بعضاً :

— لقد تكلمت هذه الأمسية

والإحساس بالغربة في الحياة كلها . وفيه الأسى على صور الأمومة الحية النابضة حين يقول :

« من ذا الذي يقص على أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب . ويصور لي أياي الأولى فيعيد إليها الحياة ، ويبعثها كرة أخرى في الوجود »

وحين يقول :

« عندي لك أنباء كثيرة . كثيرة جداً ومتزاحمة . تواكبت جميعها في خاطري على قصر المهد بغيبتك ، وإنه ليخيل إليّ في لحظات ذاهلة : أنني أترقب عودتك لأسمعك هذه الأنباء ، وأحدثك بما جدّ لنا في غيبتك من أحداث ، وأنك ستسرين ببعضها وتهتمين ببعضها ... وهي مدّخرة لك في نفسي يا أماه ، ولن تدب فيها الحياة إلا حين أقصها على سمعك ... ولكن هيهات فسيدركها الفناء . وستغدو إلى العدم المطلق ، لأنك لن تنصتي إليها مرة أخرى »

هذه الأحاسيس ، وهذه الصور لا تعجب الأستاذ مندور : « ولا إبقاع فيها ولا نبل في الإحساس ولا توفيق في الاختيار للتفاصيل » ولا تعدل بحال من الأحوال ذكر « القسطان العتيق » ولا « اليدين اللطيفتين » ولا « وقع القدمين حول السرير » ولا « غابة السنديان »

لماذا ؟ لأن في القطعة الأولى معانيَ كبيرة وأحاسيس عميقة ، وليس فيها « فتات » . ولهذا دلالته القوية فيما نحن بصدده . فهنا مزاج موكل بالأحاسيس الصغيرة الهامسة والمظاهر التافهة الساذجة ، لا يستقل حسه بإحساس ضخم ، ولا بصورة مركبة ، ولا يطيق أن يرى في الحياة إلا الأطياف الباهتة ، ولا أن يسمع في الطبيعة إلا الهمسات الخافتة . وتلك الجزئيات المفردة تستلفت نظر المرأة بشدة في الحياة ، ونظر ذوي الأمزجة الخاصة كذلك

والأستاذ مندور كرجل ذي مزاج خاص مطلق الحرية في أن يختار ما يطيق حمله وما يستطيع أن يقله ، ولكنه لا يصلح حكما يشرع للآخرين من أقوياء البنية القادرين على حمل ما يؤوده حمله ، وعلى إدراك ما يقصر عنه حسه !

أما ما قاله عن الأستاذ محمود حسن إسماعيل فليس اليوم مجال الحديث فيه ؛ وحتى التسليم به لا يؤثر في الحكم على الشعر المصري كله

سيد قطب

— « إنها تنام نوما عميقاً

— « هذه أول ليلة نشعر براحة فيها ...

— « أحسب أن لنا الحق بالضحك أيضاً بلا خوف ... »

ولكن الجدّ العجوز ، لا يزول اضطرابه ولا قلقه ؛ ولا يخفف من قلقه واضطرابه هذا الهراء الذى يسمعه ، لأن عينيه لا تريان هذه المظاهر الخارجية التى تمنع الروح من التجوّلان ، فهو متصل بالكون بروحه ، يلتقط بها الأشياء ويدركها . هى كلاقطة المذياع ... يعلم بها ما سيقع وسيكون . لا جرم أن لدينا جميعاً هذه اللاقطات ، ولكنها تختلف فى قوتها ؛ فكلما كانت الروح قوية كان هذا الإدراك أو ذاك الشعور قوياً . ولكننا لا نفيد منها جميعاً ... لأن بصرنا يقف عند ظاهر الأشياء . فالواقع reel الذى نشاهده يمحو الحق vrai . وهذه الفكرة ملازمة لآثار ماترلنك يعرضها ويفصلها ويشرحها . وإن ما نعتبره أدوات كشف وفهم كالبصر والنطق ، لهى عاهات ... فالأعمى فى هذه الدرامة يرى ببصيرته ، يرى ما لا يراه أولئك الذين يتحدّثون من حوله ... ويتكلمون

ويمضى ماترلنك فى درامته هذه ، فيصور لنا وساوس الجد المسكين وقلقه . إنها لم تشعر بالروح والنشاط كما يزعموا .. لا ... ولكن ماذا حدث ... ؟ فلقد هب الهواء ... وخرست العنادل ، وها هو ذا خفق أقدام البستانى يرتفع . لقد بدأ عمله .. ويثرثر الفتيات ؛ ويضطرب الشيخ ، فقد شعر بدخول مخلوق لا يستطيع أحد أن يراه ... إنه يرى ... يرى ما لو تكلم به لسخروا منه ... دخل هذا المخلوق الرهيب ... إنه هنا ، فى الدار ، يحس به ويضطرب قلبه له . ويطرق الشيخ الأعمى لحظة ، وتدخل الراهبة فترسم الصليب ... لقد ماتت المرأة ...

ويجهد ماترلنك فى إفهام القارئ أن الموت دخل إلى غرفة أولئك الأحياء ، وكان بينهم ، كما أنه فى كل ساعة ، وفى كل مكان ، يستطيع أن يدرك المخلوقات كلها

وماترلنك يُدخل الموت فى جميع مسرحياته ، فالموت يصدد ضرباته دائماً للشباب والنعيم والحب ، لا لأن السعادة أو الحب تصابان بما لا يصاب به الحقد والألم والبغض ، بل لأن ضرباته شداد فى السعادة والحب ... خِفاف فى الشقاء والحقد .

* * *

وينحو النحو نفسه فى درامته « العميان Les aveugles » فمن هم هؤلاء الإثنا عشر أعمى : ستة عميان ، وست عمياوات ، التائهون فى غابة من غابات إفريقية الاستوائية ، تحت سماء صافية مزدانة بالنجوم . ينتظرون عودة الكاهن الذى قادهم إلى تلك المناطق البعاد ، فتركهم فيها ومضى . هؤلاء العُمى رمز الإنسانية الفلقة الحائرة ، التى تجهل الطريق الواجب اتباعها ، وترتقب نجدة خارجية من دين أو فلسفة ، فتنقذها مما هى فيه . إن أولئك العميان وهم فى تلك الغابة ، لا يجهدون ولا يتحركون لأشد ضعفاً من الأطفال ... ماذا يفعلون وقد غاب الدليل ... إن صخوراً ضُمَّا ، وهُوى سِحاقاً تحيط بهم . لقد حُكم عليهم أن يبقوا فى هذا السجن وسُلِّط عليهم الموت ، فهم يشعرون به عند ما يفقد بعضهم بعضاً ولكنهم لا يجدون إلى رؤيته سبيلاً .

* * *

على أن درامته السماة « بيلّياس وميليزاند Pelléas et Mélisande » أشد سحراً ورقة ، وأقرب ما كتب ماترلنك من الواقع . وقد افتَتَنَ الموسيقيون فى وضع ألحانها ، فجعلتها موسيقى « De bussy » شعبية ذائعة . حتى أن سلطان النغم أكسبها قوة ورقة ، وإن كانت هذه الموسيقى قد أوضحت بعض ما كان ينبغى أن يبقى غامضاً ، كالألم والقلق والخيبة ... هذه الأشادى التى يجب أن تظل كالظلال ... وراء الأقوال ... يدركها المرء بروحه ويستخرجها بنفسه ...

لقد تزوّجت « ميليزاند » الحسناء « جالود Galaud » الأمير وكان هذا صياداً ماهراً ، ذا بأس وقوة . وكان أخوه بيلّياس فتى غرانقاً ، فأحبته ميليزاند ، وأحبها . وإنهما لفى خلوة من خلوات الحُبّ ، إذ يفجؤهما خولود ... فيثور ويغضب ويشهر سيفه ويطعن ميليزاند فتجرح ، ويحاول أن ينتحر ... ويفرّ بيلياس فيرمى بنفسه فى هوة سحيقة ... فتتناثر قطع جسمه فى جنباتها . وتموت ميليزاند بعد أن تضع غلاماً ... وهنا تُزداد الدرامة رفعة بالموسيقى ... على أن بيلياس وجولود وميليزاند